اللجوء إلى اللَّه

اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ

عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللَّه ﷺ قال:

« إذَا كَانَ يَوْمٌ حَارٌّ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ.. مَا أَشَدَّ حَرَّ هَذَا اليَوْم! اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي اسْتَجَارَ بِي مِنْ حَرِّكِ، وَ إنِّي أُشْهِدُكِ أنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ.

وَإنْ كَانَ يَوْماً شَدِيدَ البَرْدِ، فَإذَا قَالَ العَبْدُ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ.. مَا أَشَدَّ بَرْدَ هَذَا اليَوْم! اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجَهَنَّمَ: إنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي قَدْ اسْتَجَارَ بِي مِنْ زَمْهَرِيرِكِ، وَإنِّي أُشْهِدُكِ أَنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ.

قَالُوا: وَمَا زَمْهَرِيرُ جَهَنَّمَ؟ قَالَ: بَيْتٌ يُلْقَى فِيهِ الْكَافِرُ فَيَتَمَيَّزُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهَا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ»(١).

يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

أولئك عباد اللَّه المتقون الصادقون مع أنفسهم، الذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، يسجدون على أنوفهم ووجوههم للَّه، قائمين على أقدامهم، يحذرون الآخرة، ويرجون رحمة اللَّه. إنهم يتمثلون عذاب الآخرة أمام أعينهم ويستحضرون أهواله وشدائده، ويعرفون تمام المعرفة أن مَنْ يُزحزح عن هذا العذاب يكون قد فاز فوزاً عظيماً ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٨٥].

آية جامعة تتحدث عن حقائق لا تقبل الشك، بدأها الحق سبحانه بالأمر

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة [٣٠٧]، والحديث في الاتحافات السنية [٣٠٥] معزواً لابن السني وأبي نعيم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة معاً.

المشَاهَد لكل إنسان وهي حقيقة الموت، وأن كل نفس لا بُدَّ ذائقته، وأيضاً فإن توفية الأجور وإثابة المحسن وعقاب المسيء حقيقة أيضاً، فإنكم إذا كنتم ستموتون كقضاء قَدَّره اللَّه على كل حَيٍّ، فلا تخافوا؛ لأن كل إنسان سيأخذ حقَّه، ففي يوم القيامة لا يُظلم أحدٌ.

ويبقى الأمل الذي لا ينقطع في أنْ يُزَحْزح عن النار، وكأن للنار جاذبيةً تجذب الإنسانَ ناحيتها، فالنار مُحَاطة بالشهوات، فنحتاج إلى فضل اللَّه وكرمه علينا، بأنْ يبعدنا ويزحزحنا عن النار ويُدخِلنا الجنة، وليس مهماً في أي مكان في الجنة، في أعلاها، أو في أسفلها، فمجرد دخولها هو فوز عظيم.

لذلك كان دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

أي: أن عذابها لازم دائم لا ينتهي.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ . . .﴾ [الفرقان: ٦٥]، كأنهم يتصوَّرون أن جهنم ستسعى إليهم وأن بينها وبينهم لَدَداً[١] بدليل أن جهنم تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

ويقول عن أهل النار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

والصاحب هو الذي يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه، ويقضي أجمل أوقاته، فكان قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ دليلاً على عِشْق النار لهم، فهي تفرح بهم عندما يدخلونها كما يفرح الصديق بصديقه ولا تريد أن تفارقهم أبداً.

فالنار تصاحبهم في كل مكان، وهي ليستْ مصاحبة كريهة بالنسبة للنار، ولكنها مُصَاحَبة تحبُّها النار، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة؛ لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج اللَّه، وكذَّبوا بآياته في الحياة الدنيا.

وكذلك الحال بالنسبة للجنة، فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كل مَنْ آمن باللَّه وأخلص له العبادة، وطبَّق منهجه، يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) اللدد: الخصومة الشديدة. [لسان العرب مادة: لدد].

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] [هود: ٢٣].

فكأن النارَ ستجذب أصحابها، وهم لن يجدوا عنها محيصاً، أي: لا مهربَ ولا مفرَّ، وكان باستطاعة الواحد منهم أنْ يفرَّ من مخلوق مثله في دنيا الأغيار، ولكن حين يكون الأمرُ للَّه وحده فلا مفرَّ. ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فحين نسمع ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾، ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ تتزلزل النفوسُ رهبةً من تلك الصُّحبة التي نبرأ منها، فالصحبة تدلُّ على التلازم، وتعني الارتباط معاً، وألَّا يترك أحدُهما الآخرَ، كأن الجحيم لا تتركهم، وهم لا يتركون الجحيم، بل تكون الجحيمُ نفسها في اشتياق لهم.

وكأنهم عشقوا النارَ فعشقتهم النارُ، ولو كانت لديهم قدرةٌ على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا، لكنهم مربوطون بها، وهي مربوطة بهم، وهي بئس القرار؛ لأن أحداً لن يخرجَ منها إلا أنْ يشاء اللَّه.

وجهنم اسم من أسماء النار التي يُعذِّب اللَّهُ بها مَن استحقَّ من عبيده، سُمِّيت بـ «جهنم» لبُعْد قَعْرها.

والعذاب فيها دائم، لا يتغير ولا يفتر، ولا يُخفَّف، بل هو مستمر إلى الأبد؛ لذلك يقول تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٨].

أي: أن العذاب يظل دائماً أبداً، وقد يظن بعضُ الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهي أمره، إنه يتناسى قوْلَ الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

مشهد يُشخِّص الهَوْلَ العظيم المُفزِع للقلوب، فتقشعرّ منه الأبدان، وترتعد منه الفرائص، أَمَا من نهاية لهذا العذاب، لسان حال الكافرين الذين أُلقِي بهم في هذه النار، وفي هذا العذاب الذي لا ينتهي بسبب كفرهم وشركهم، فلا هُمْ

---

(١) أخبتوا إلى ربهم: تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المطمئن الواسع. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] أي: الخاشعين.

يموتون من هذا العذاب، ولا هو يتوقف، ولا حتى تموت جلودهم، فلا تشعر ولا تحسُّ، بل كلما شُوِيَتْ الجلودُ بهذه النار نجد الجلودَ تتبدَّل.

فلا ينتهي الإحساسُ بالعذاب، بل هو دائم مستمر ﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

إن اللَّه يخلق للمعذَّب إحساساً جديداً؛ ليظل مُستشعراً دائماً العذابَ، قال الحق سبحانه: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٨]، أي: أن عذابهم مؤكّد، ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

ويقول الحق سبحانه عنهم: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

إن المجرمين يتصايحون ويصطرخون في النار، إنهم هذه المرة لا يطلبون النجاة، فقد علموا وأيقنوا أنْ لا فرارَ منه، ولكنهم هذه المرة يطلبون الهلاك السريع الذي يريحهم من هذا العذاب، فالنفوس قد أطار صوابها العذابُ، ولم يعودوا يحتملون هذا العذاب، فينادون خازن النار: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فيردُّ عليهم مالك: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فلا خلاصَ، ولا رجاءَ، ولا موتَ، ولا قضاء.

بل إنهم يلجؤون لخزنة جهنم، يطلبون منهم الدعاء لهم أن يُخفِّف اللَّه عنهم هذا العذاب: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩].

فهم من شدة البلاء والكَرْب والعذاب يلجؤون لحُرَّاس جهنم، يستشفعون بهم ليُخفِّفَ اللَّهُ عنهم يوماً واحداً فقط؛ ليستريحوا فيه من العذاب وليلتقطوا أنفاسهم.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة، وهذا يزيدهم عذاباً على عذابهم، فلا أملَ في النجاة.

لذلك كان عذاب جهنم يستحق من عباد اللَّه المؤمنين الخوفَ والوَجَلَ والارتعاد، فيطلبون من اللَّه صَرْف هذا العذاب عنهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥].

وصَرْف العذاب رحمةٌ من اللَّه عز وجل، يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٥، ١٦].

فذلك الفوز هو أَرْقى درجات الفوز، أنْ يُصْرَف العذاب عن العبد، فهو فوزٌ واضحٌ مبين، لذلك وصف عبادُ الرحمن النارَ، فقالوا: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

فلا يظنّ أحدٌ أن النارَ فترة وتنتهي: ثم يخرجون منها، فهي مُسْتقر دائم للكافرين، ومقام لن يفارقوه، ولن تفارقهم.

فعباد اللَّه يُوقنون بهذا الأمر؛ يُوقنون بقول اللَّه عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

فحكمة اللَّه اقتضتْ تأجيلَ العذاب إلى وقت يُحَدِّده اللَّه، وفي هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على اللَّه ويُوغِلون في الكفر، ويقولون: ما الذي يمنع عنَّا العذاب؟

إنهم يقولون ذلك استهزاءً وسخرية، ولا يعلمون أن العذاب آتٍ حتماً، ولا خلاصَ لهم منه؛ لأن اللَّه صادقٌ في وعده ووعيده، وسيأتيهم العذاب؛ لأنهم استهزأوا وسخروا، فلا مناصَ لهم عنه، ولا مهربَ لهم منه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وهذا تأكيد أن العذابَ سيأتي ولكن العبادَ دائماً يَعجلون، واللَّه سبحانه لا يعجل بعجلة العباد، حتى تبلغ الأمورُ ما أراد، وكلُّ أمر له وقت، وله ميلاد، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

وقد جاء تأكيدُ وصول العذاب إليهم بأشياء، منها «ألا» وهي أداةُ تنبيه،

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ وهذا خبر بأن العذاب آتٍ لا محالةَ؛ لأن الذي يُخبر به هو اللَّه سبحانه.

وأيضاً فهذا العذابُ ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: أنه عذابٌ مستمر.

وقوله الحق سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨]، يعني: أنه حَلَّ بهم ونزل عليهم، ووقعَ لهم العذاب الذي استهزأوا به من قبل، فالأمر واقعٌ لا محالةَ، وما دام الحقُّ سبحانه قد قال إنه أمر قد أتى، فهو آتٍ لا محالةَ؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾. [هود: ٨]، فالأمر بالنسبة له سبحانه لن يحولَ بينه وبين وقوعه أيُّ عائق.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

إنهم يستغيثون في الآخرة ويُغاثون بالفعل، ولكن بأيِّ شيء يُغيثهم اللَّه؟ إنه يُغيثهم بماء كالمُهْل[1] يَشْوي الوجوه، إننا ساعة أنْ نسمع «يُغَاثوا» قد نظن أن هناك فرجاً قادماً، ولكن الذي يأتي هو ماءٌ كالمُهْل يَشْوي الوجوه.

وهذا قمة الهَوْل، وذلك مثال السجين الذي يطلب كوبَ ماء، ويستطيع السجان أنْ يقولَ له: لا، ليس هناك ماءٌ. أما إذا أراد السجانُ تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له: سآتي لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال، ويمدُّ السجينُ يده لكوب الماء، لكن السجانَ يسكب كوبَ الماء أرضاً.

وكذلك رغبتهم في الخروج من النار، فلا إرادةَ لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنَّة أنْ يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم؛ ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾.. [آل عمران: ٢١].

وتثير البشرى في النفس الأمل في العفو، فيفرحون، ولكن تكون النتيجة هي: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهكذا يريد لهم الحقُّ صدمةَ الألم المُويس بعد الرَّجاء المُطمع.

---

(١) المُهْل: هو دردي الزيت، وقيل: هو العكر المغليّ. قال أبو عمرو: المهل أيضاً: القبح والصديد. [لسان العرب مادة: مهل].

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب يُغاثون، يتبادر إلى الذهن أنهم يُغاثون بشيء من رحمة اللَّه، فتأتيهم نفحةٌ من الرحمة أو يُخفَّف من العذاب.. لا، ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يُخفّف عنهم ألم النار، فإذا بهم بماء كالمهل.

والمُهْل هو عكارة الزيت المغليّ الذي يُسمُّونه الدُّرْدي، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة.

ولكن الحق سبحانه يقول عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: محيط بهم، فكأن اللَّهَ تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم، بحيث لا تمتدّ أعينُهم إلى مكان خَالٍ من النار؛ لأن رؤيته لمكان خالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج.

فقوْل الحق سبحانه عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، يناسب الذين يفعلون الخيرات، طمعاً في الثواب، وخوفاً من العقاب، فهم الذين يقولون هذا.

كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهيام والعشق، ومعناها: اللزوم، أي لازمٌ لهم لا ينفكّ عنهم في النار أبداً؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً، أو نار أبداً.

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي: لازماً دائماً، ليس مرة واحدة وتنتهي المسألة. ومنه كلمة: الغريم وهو الذي يلازم المَدين ليأخذ منه دَيْنه.

أما عباد اللَّه الذين مال الخوف قلوبهم إشفاقاً من عذاب اللَّه، فجزاؤهم الجنة خالدين فيها أبداً، ويخاطبهم رَبُّ العزة سبحانه، فيقول: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

فما دُمْتم عباداً للَّه فلا تخافوا من شيء، ولا تحزنوا على شيء؛ لأن

المسلمَ في الدنيا يقول: لا كرْبَ وأنت رَبٌّ. أي: لا كرْبَ يُخيفنا طالما أن لنا رباً، هو اللَّه الرحمن الرحيم، فالمؤمنون في الآخرة الذين هم عبادُ اللَّه لا يخافون من شيء سيحدث لهم، ولا يحزنون على شيء فَاتَهم في الدنيا من نعيمها؛ لأن ما وجدوه عند اللَّه خيرٌ وأبقى.

ولكن، مَنْ هم هؤلاء العباد؟

يقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]. إذن: هناك فرْقٌ بين الإيمان والإسلام، الإيمان عملُ القلب، والإسلام عملُ الجوارح التي تنفذ ما أمر به مَنْ آمنت به، وهو اللَّه.

ولذلك كان المنافقون أسبقَ الناس إلى الصلاة، لكن قلوبهم غير مؤمنة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهُم لم يؤمنوا، ولكنهم يقومون بأعمال المسلمين، ولذلك كان بعض المنافقين يحرصون على الصلاة في الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمةَ النفاق، ومن الظواهر العجيبة أن المدينة وهي منطلقُ الإسلام بالأنصار ظهر فيها النفاقُ، بينما مكة التي كانت تحارب الإسلام والمسلمين لم يظهر فيها نفاقٌ أبداً.

فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]، أي: اقتنعتْ قلوبُهم اقتناعَ يقين. هؤلاء المؤمنون الذين هم عباد اللَّه.

يقول الحق سبحانه عن جزائهم في الآخرة: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]. أي: تُسَرُّون. أو: يغشاكم الحُبُور وهو لَوْن البَهاء الذي يُشِع من وجه الإنسان التقي لسروره، مِصْداقاً لقوْلِ اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

كأن اسمه النعيم الناضج، ومعنى نعيم ناضج أنك حين ترى هذا الإنسان تعرف أنه مُنعَّم ومسرور وفَرِح. إذن: فالوجه هو المرآة المُعبِّرة عما في النفس البشرية، وهذا واقع، فساعةَ ترى أيَّ واحد تستطيع أنْ تحكم عليه إنْ كان مسروراً، أو إنْ كان حزيناً، أو مهموماً ومشغولاً.

إذن: قَوْل الحق سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ يعني: أنه لا شيءَ يُنغِّص عليهم حياتهم السعيدة هذه، فتنُم عنه هذه الوجوه، فساعةَ تراهم تشعر أنهم مُنعَّمون.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

فالرحيقُ هنا مُصفّى في ذاته من كُلِّ الشوائب، وفَوْق ذلك فهو مختوم، وذلك دليلُ الصيانة المتناهية، وختامه ليس صفيحاً أو فِلِّيناً، كالذي نختم به المشروباتِ في الدنيا، وإنما ختامه مِسْك. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، أي: أن هذا هو المجال الذي يصحّ أنْ يكون فيه السباقُ والتنافسُ عليه، فالتنافسُ لا ينبغي أنْ يكونَ في الطفيف من الأشياء، أو المَهين الحقير من حُطام الدنيا وعَرَضها الزائل، بل يكون التنافس على هذا النعيم الدائم الباقي.

والمنافسة معناها المغالبة على الشيء النفيس. تقول: نافستُ فلاناً، أي: غالبتُه على الشيء، أنت تريد أنْ تأخذه، وهو يريد أنْ يأخذه، وكلُّ واحد مِنّا يجدُّ ويجتهد في أنْ يحصلَ على ذلك النفيس، أو هو لونٌ من مجاهدة النفس، هذه المجاهدة لها غايةٌ، هذه الغايةُ أنْ تلحق بالأفضل في الصفات.

إذن: المنافسة أنني أجتهد لأظفرَ بشيء ظفر به فضلاءُ بدون أنْ أُلحِق ضرراً بالآخرين، وبذلك تختلف المنافسةُ عن الحسد، فالذين عندهم طموحٌ للمعالي لا يتنافسون فيما يمكن أنْ يتركهم أو يتركوه، لأننا قُلْنا: إن نعيمَ الدنيا إما أنْ يتركه الإنسانُ بالموت، أو يتركه النعيمُ، بأنْ يزولَ عنه ويُسلب منه، إنما هناك في الآخرة نعيمٌ لا تفوته ولا يفوتك.

إذن: هذا هو التنافس الحقيقي الذي لا بُدَّ أنْ يتنافسَ فيه المتنافسون.

هذا التنافس هو نتيجة لليقين الجازم في معنى قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرأوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعندما تقول: زحزحت فلاناً، معناه أنه كان متوقفاً برعب وهلع، فكيف يحدث ذلك عند النار؟ فالنار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان، ومجرد الزحزحة عن النار حتى وإن وقف بينهما، لا في النار ولا في الجنة فهذا حسن، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟

فالذي يُزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى، والحق سبحانه لم يقُلْ: ومَنْ أُدخل الجنة فقد فاز، بل قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، لأن مجرد أن تُزحزح عن النار فوز عظيم، وفي الآخرة، وبعد الحساب يُضرب الصراط فوق جهنم ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون.

يجتاز المؤمنون الصراط المستقيم كلٌّ حسب عمله، منهم مَنْ يمرُّ بسرعة البرق، ومنهم مَن يمرُّ أكثر بُطأ وهكذا، والكافرون يسقطون في النار.

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط، واللَّه سبحانه يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

فمجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى، فحين يروْنَ العذاب الرهيب الذي أنجاهم الإيمانُ منه يحسّ كل منهم بنعمة اللَّه عليه أنه أنجاه من هذا العذاب، وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً، فأهل الجنة حينما يرون أهلَ النار يُحسون بعظيم نعمة اللَّه عليهم إذ أنجاهم منها، وأهل النار حين يروْنَ أهل الجنة يُحسّون بعظيم غضب اللَّه عليهم أنْ حرمهم من نعيمه، فكأن هذه الرؤية نعيمٌ لأهل الجنة وزيادة في العذاب لأهل النار.

فمجرد الزحزحة عن النار فضلٌ ونعمة، فمراحل الفوز أنْ يُزحزحَ الإنسانُ أولاً عن النار، ففي هذا سَلبٌ للمضرَّة وجلبٌ للمنفعة، وإنْ ظل الإنسانُ في موقعه، لا هو في الجنة ولا هو في النار، فهذا هَيِّن أيضاً، وإنْ أُدخلَ الجنة فهذا هو الخير كله.

فرؤية المؤمن للنار قبل أن يدخل الجنة تُريه مدى نعمة اللَّه عليه ورحمته به، حيث نجَّاه من هذا العذاب، ويعلم فضل الإيمان عليه، وكيف أنه أخذ بيده حتى مرَّ من هذا المكان سالماً.

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤيةَ الحسرة والندامة والفزع، لأنه يعلم أنه داخلها ولن يفلت منها.

لذلك قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]، ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة، يوم تُبْلَى السرائر، يوم يقوم الناسُ لربِّ العالمين، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً، والأمر يومئذ للَّه.

وسماه المشهد العظيم، لأنه يومٌ مشهود يشهده الجميع لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كلُّ الخَلْق.

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب، فربما تحمَّل هو العذاب في نفسه، أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً، ويرونه في هذه المهانة وهذه الذلة، وقد كان في الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً، لا شكَّ أن رؤيتهم له في هذه الحالة تكون أنكى له وأبلغ.

وإذا كان عباد اللَّه يذكرون اللَّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خَلْق السماوات والأرض، فإن هذا من يقينهم باللَّه عزَّ وجلَّ، وأن وعده حقٌّ وأن النارَ حقٌّ، وأن الجنةَ حقٌّ.

لذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فهم يتضرعون إلى اللَّه أنْ يقيهم ويُنجيهم من عذاب النار، ويُتبعون دعاءهم هذا بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وهذه هي العظمة، فهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار، ولكنهم يذكرون خزي اللَّه لمن دخل النار، وكأن الخزيَ مرتبةٌ أشرّ من عذاب النار، فمَن الذي أعطانا كلَّ هذا الفضل، إنه سبحانه أعطانا توفيقاً لذكره وتوفيقاً لنتفكر في خلق السماوات والأرض، فهل يصحّ أن نقابله بكفران النعمة؟

وما الذي يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار؟ إنه الخزي والعياذ باللَّه.

وقد سمَّى الحق سبحانه عذاب الخزي مُسميات أخرى، فهو أيضاً عذاب الهُون، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فعذاب الهُون هو العذاب المؤلم وفيه ذلة، فمرّة يكون العذاب مُؤلماً لكن لا ذلةَ فيه، ومرّة يكون العذابُ مؤلماً وفيه ذلة، وكما أن النعمةَ فيها تعظيمٌ فالنقمة فيها ذلة.

وفي آيات أخرى يعطينا الحق سبحانه صورة حية ماثلة للأعين، للعذاب في جهنم وتنوّعه بين العذاب الحسي والمعنوي، فيقول تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩].

ويقول أيضاً: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

ويقول أيضاً: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

كلها تدور حول الذَّوْق والإذاقة في العذاب، فالإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً، وذلك هو العذاب المهين، والذَّوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدَّى كل مُحَسٍّ به، ولو لم يَكُنْ مطعوماً أو مشروباً.

فقوله: أي: ذُق الإهانة والمذلة، لا مما يطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب اللَّه، وعذاب الآخرة سيكون مَهُولاً، والعذاب هو إيلام الحسِّ، إذا أحببتَ أنْ تديم ألمه فأبْق فيه آلةَ الإحساس بالألم.

لذلك قال عباد الرحمن وجلين خائفين من عذاب اللَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

هؤلاء الذين قال اللَّه فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فهم يخافون اللَّه بالغيب، مع أنهم لا يرونه بأعينهم، يخشوْنَ ربهم في خلواتهم عن الخلق، فمهابة اللَّه والأدب معه تلازمهم حتى في حال خلواتهم وانفرادهم.

بينَ البُخْل والتَّبذير

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

نشد اللَّه عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد، فقال لأحدهما: «أي فلان»، فقال: لبيك رب وسعديك. قال: «ألم أكثر لك من المال والولد؟» قال: بلى أي رب، قال: «فكيف صنعتَ فيما آتيتك؟» قال: تركته لولدي مخافةَالعيلة عليهم. قال: «أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ولبكيت كثيراً، أما إن الذي تخوفت عليهم قد أنزلته بهم».

ويقول للآخر: «أيْ فلان بن فلان»، فيقول: لبيك أي ربّ وسعديك قال: «ألم أكثر لك من المال والولد؟» قال: بلى أي رب، قال: «فكيف صنعتَ فيما آتيتك؟» قال: أنفقته في طاعتك، ووثقت لولدي من بعدي بحُسن عدلك، فقال: «أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً، أما إن الذي وثقتَ لهم قد أنزلته بهم»[1].

يقول الرحمن عزَّ وَجَلَّ عن عباد اللَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وموقفهم هذا هو تحقيقٌ لجانب من جوانب قِوَامة منهج اللَّه في مجال الإنفاق، وتصرُّف المرء في ماله، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً، لا تبذيرَ فيه ولا تقتير.

ولا شكَّ أن الإنسان بطبعه يحب أنْ يُثري حياته، وأنْ يرتقي بها، ويتمتع بترَفِها، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذِّراً، لا يُبْقِي من دخله على شيء، بل لا بُدَّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجدَ في جُعْبته ما يمكنه أنْ يُثريَ حياته ويرتقي بها، ويُوفِّر لأسرته كماليات الحياة، فضلاً عن ضرورياتها.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٢٠٥) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

فللإنسان في حياته طموحاتٌ تتتابع ولا تنتهي، خاصة في عصر كثرتْ فيه المُغريات، فإنْ وصل إلى هدف تطلَّع لمَا هو أكبرُ منه، فعليه إذن ألَّا يُبدِّد كل طاقته، وينفق جميع دَخْله.

وكما نهى الإسلامُ عن التبذير نهى أيضاً عن البخل والإمساك، لأن البُخْل مذمومٌ، والبخيل مكروهٌ من أهله وأولاده، كما أن البخلَ سببٌ من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع، فالمُمسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء، فيسهم ببُخله في تفاقم هذه المشاكل، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه.

إذن: فالتبذير والإمساك كلاهما طرفٌ مذموم، والخير في أوسط الأمور وهذا هو الأقوم الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي.

والتبذير مأخوذٌ من البَذْر، وهو ما يقوم به الفلَّاح، فيأخذ البذور التي يريد زراعتها، وينثرها بيده في أرضه، فإذا كان مُتقِناً للأمر تجده يبذر البذور بنسَب متساوية، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها، وتكون المسافةُ بين البذور متساويةً.

وبذلك يعطي الزرعُ المحصولَ المرجوَّ منه، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة، فهي كثيرة في مكان، وقليلة في مكان آخر، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً؛ لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب، فهي قليلةٌ في مكان، مزدحمةٌ في آخر فيُعاق نموُّها.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، لأن المبذِّر يضع المالَ في غير موضعه المناسب، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم، في حين يُمسك في الشيء الضروري.

إذن: التبذير هو صَرْف المال في غير حِلِّه أو في غير حاجة أو ضرورة.

وقد فسَّر عبد اللَّه بنُ مسعود وعبد اللَّه بنُ عباس التبذيرَ بأنه الإنفاقُ في غير حقٍّ[١]، وقال مجاهد: لو أنفق إنسانٌ ماله كله في الحق

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦).

لم يكُنْ مُبذِّراً، ولو أنفق مُدّاً[١] في غير حَقٍّ كان مُبذِّراً[٢].

فليس التبذير هو الكثرة والقلة في الإنفاق، بل هو موضع الإنفاق، ومن ثَمَّ كان المبذِّرون إخوانَ الشياطين، لأنهم ينفقون في أوجه الباطل والشرِّ والمعصية، فهم رفقاء الشياطين وصحابهم. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

لأنه لا يؤدي حقَّ نعمة اللَّه كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حقَّ نعمة اللَّه عليهم وحقُّها أنْ ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين.

فالكون الذي تعيش فيه لك فيه مصالح، وتراودك فيه آمال، فإنْ شاركتَ في حركة الحياة، واكتسبتَ المال الذي هو عَصَبُ الحياة، فعليك أنْ توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك في المستقبل.

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبتَ في نفقاتك الحاضرة، فقد ضيَّعْتَ على نفسك تحقيق الآمال في المستقبل، فلن تجد ما تبني به بيتاً مثلاً، أو تشتري به سيارة أو ترتقي بمستواك ببعض كماليات الحياة، وهذا ما نسميه الإسراف.

لذلك يقعد مَلُوماً محسوراً، يلوم نفسه على ماله الذي ضيَّعه، الذي استنفد منه عمراً وجهداً وصحة، لن يعود الزمان به ليُعوِّض شيئاً منها، يتحسر على ما فرَّط في حقِّ نفسه.

ورسول اللَّه ﷺ يقول في فضيلة القصد في المعيشة وعدم الإسراف: «من فقه الرجل رفقه في معيشته»[٣].

وقال نبي اللَّه ﷺ: «ما عَالَ مَن اقتصد»[٤].

أي: ما افتقر واحتاج مَن اقتصد في معيشته، فكان وسطاً بين الإسراف

---

(١) المُد: نوع من المكاييل، وهو ربع صاع، وهو قدر مد النبي ﷺ، والصاع: خمسة أرطال. والصاع: أربعة أمداد. [لسان العرب مادة: مدد].

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٩٤) من حديث أبي الدرداء رضي اللَّه عنه.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٣٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

والتقتير، والتبذير والبخل، فيضع ماله حيث تكون الضرورة والنفع، فلا يكُنْ الإنسان جاحداً لنعمة اللَّه عليه غير آبه بها، فيضيع ماله فيما حرَّم اللَّه، أو فيما لا يفيد، ويترك أهله ومَنْ يعولهم يتكفَّفون الناس.

ولا يكُنْ قانطاً يائساً يظن أن اللَّه لن يرزقه إنْ هو أنفق، ولذلك يقول تعالى في نفس الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فليعلم العبد أن الرازق هو اللَّه، هو الذي يبسط الرزق ويُوسِعه، وهو الذي يَقْدِر الرزق ويُضيِّقه، هو الذي يعطي الرزق، فلا تخْشَ من ذي العرش إقلالاً.

والحق سبحانه يعطينا ملمحاً آخر للإسراف في مجال آخر لتوجيه القائمين على أموال اليتامى، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1] [النساء: ٦].

فعندما يبلغ اليتيم الرُّشد، وقد تم تدريبه على حُسْن إدارة المال، وعرف الوصيُّ أن اليتيم قد استطاع أنْ يدير ماله، ومن فَوْر بلوغه الرشد يجب على الوصيِّ أنْ يدفع إليه ماله، ولا يصحّ أنْ يأكل الوصيُّ مالَ اليتيم إسرافاً.

فالحق سبحانه يحذرنا من الإسراف في مال اليتيم في أثناء مرحلة ما قبل الرُّشْد، وذلك خوفاً من أن يكبر اليتيم، وله عند الوليِّ شيءٌ من المال. أي أن يسرف الولي فينفق كل مال اليتيم قبل أنْ يكبر اليتيم ويَرْشُد، واللَّه سبحانه وتعالى حين يُشَرِّع فهو بجلال كماله يشرع تشريعاً لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد.

والمسرف سفيه، لا صلاحَ له في عقل، ولا يستطيع أن يُصرِّف ماله بالحكمة، مما يذهب بالمال ويفسده.

---

(١) بادر الشيء مبادرة وبداراً وابتدره وبدر غيره إليه: عاجله. [لسان العرب مادة بدر]. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٣): «ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافاً وبداراً) أي: مبادرة قبل بلوغهم».

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

ومثل هذا السفيه أو المُبذِّر لا سلطةَ لأيٍّ منهما في المال، بل سلطة التصرُّف تكون للوصيِّ، وينتسب المال في هذه الحالة للوصي؛ لأنه القائم عليه والحافظ له، فالسفهاء غير مأمونين على المال.

فالسفيه لا حَقَّ له في إدارة ماله حتى يرشد؛ لأن المال في الواقع هو مال كل المسلمين، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين، وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح، فإنْ لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حَجْر، ذلك لأن أيَّ شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع.

وفي المقابل، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء، فكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك، فتكنز كل ما تكتسب ولا تنفق إلا ما يمسك الرمق؛ لأنك في هذه الحالة لن تساهم في عملية الاستهلاك، فتكون سبباً في بطالة المجتمع وفساد حاله.

وقد عالج القرآنُ الكريم هذه القضية علاجاً دقيقاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

أي: لا تمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً، فتكون مَلُوماً من أهلك وأولادك، ومن الدنيا من حولك، فيكرهك الجميع، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدِّ الإسراف والتبذير، فيفوتُك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة، وترقَّى هو في حياته، وأنت مُعْدَم لا تملك شيئاً، فكان عليك أنْ تدخر جزءاً من كَسْبك، يمكنك أن ترتقي به حينما تريد.

فالحق سبحانه يقيم في هذه الآية موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة، فلا تجعل يدك التي بها العطاء مغلولة، أي: مربوطة إلى عُنقك، وحين تُقيَّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك.

وفي المقابل قوله سبحانه: ﴿تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فالنهي

هنا عن كل البَسْط. إذن: فيُباح بعض البَسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة، وبَسْط اليد كنايةٌ عن البذل والعطاء.

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

والهداية هي الطريق المُوصَّل للغاية من أقرب وجه وبأقلّ تكلفة، وهو الطريق المستقيم الذي لا التواءَ فيه، والحق سبحانه يهدي الجميع، ويرسم لهم الطريق، فمَن اهتدى زاده هدى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

لأن المتتبِّع للمنهج القرآني يجده يُقدِّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط في كل

شيء: في العقائد، وفي الأحكام، وفي القصص.

إذن: لا تبسط يدك كُلَّ البَسْط، فتنفق كلَّ ما لديك، ولكن بعض البسط الذي يُبقي لك شيئاً تدخره، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقي بحياتك، فالإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويسهم في إنمائها ورُقيِّها، على خلاف القبض والإمساك، فإنه يُعرقل حركة الحياة: وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها.

إذن: لا بُدَّ من الإنفاق لكى تساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولا بُدَّ أن يكون الإنفاق معتدلاً، حتى تُبقي على شيء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقي به وترفع من مستواك المادي في دنيا الناس.

فالمبذِّر والمسرف تجده في مكانه، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقى على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة، ونُوفر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي.

وتأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ووَضْع القعود يدلُّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء، فكلمة تقعد تفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة

فيها؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

وقَوْل الحق: ﴿مَلُومًا﴾ أي: أتى بِفعْل يُلام عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولاده وأهله، وكذلك المُمسِك البخيل، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن. ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة، من قولهم: بعير محسور. أي: لا يستطيع القيام بحمله. وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده.

فإنْ قبضتَ كلَّ القبض فأنت مَلُوم، وإنْ بسطْتَ كلَّ البسط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها. إذن: فكِلَا الطرفين مذموم، ويترتب عليه سوءٌ لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع. إذن: فما القصد؟

القصد أنْ يسير الإنسان قَواماً، وسطاً بين الإسراف والتقتير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً، ينظم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع، فابسُطْ يدك بالإنفاق لكي تساهم في سير عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء، لكن ليس كلَّ البسط، بل تُبقِي من دَخْلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة، وكذلك لا تمسك ولا تُقتر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك، لا تتفاعل معه، ولا تُسهم في إثراء حركته.

والحق سبحانه وتعالى هو صاحب الخزائن التي لا تنفد، وهو القائل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.. [النحل: ٩٦].

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كلَّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه، كما قال في الحديث القدسي[1]: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وحيّكم وميتكم، وشاهدكم وغائبكم، وإنسكم وجنكم، اجتمعوا في صعيد

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه وقال: حديث حسن. وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧).

واحد، فسألني كُلٌّ مسألته، فأعطيتُها له، ما نقص ذلك مما عندي إلا كمِغْرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر، ذلك أنِّي جواد واجد ماجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون».

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فاللَّه الذي لا تنفد خزائنه يعطي خَلْقه بقَدَر، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البَسْط، ولا يقبضه عنهم كلَّ القبض، بل يبسط على قوم، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناسِ، وحدثت بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم.

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل، وصاحب العمل إلى مال، فتلتقي حاجاتُ الناس بعضهم لبعض، وبذلك يتكامل الناس ويشعر كلُّ عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة.

والحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب، بل المواهب مُوزَّعة بين

الخَلْق جميعهم، فأنت صاحب موهبة في مجال، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا، ليظلَّ الناس يحتاج بعضهم لبعض.

فالغنيّ صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه اللَّهُ لأقلِّ المهن التي يستنكف أنْ يصنعها، ولا بُدَّ له منها لكي يزاولَ حركة الحياة، والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أنْ يتفضَّل الناسُ على الناسِ بل لا بُدَّ أن ترتبطَ مصالحُ الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض.

فإذا كان الحق لا يبسط لعباده كلّ البَسْط، ولا يقبض عنهم كلَّ القبض، بل يقبض ويبسط، فوراء ذلك حكمة للَّه تعالى بالغة، لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده يُنظِّم حياتهم، وعلى العبد أنْ يرضى بما قُسِم له في الحالتين، وأنْ يسير في حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره اللَّه له من الرزق.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فليُنفق على قَدْره، ولا يتطلع إلى ما

هو فوق قدرته وإمكاناته، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحةَ في الدنيا، وتُوفِّر له سلامة العيش.

ورحم اللَّه امرءًا عرف قَدْر نفسه، لأن الذي يُتعب الناس في الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّق عليه في الرزق يريد أنْ يعيش عِيشَة الموسَّع عليه رزقه، ويتطلع إلى ما فضَّل اللَّه به غيره عليه.

فلو تصوَّرنا مثلاً زميلين في عمل واحد، يتقاضيان نفس الراتب:

الأول: غنيٌّ، وفي سَعَة من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه.

والآخر: فقير، ربما يساعد أباه في نفقات الأسرة.

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما، فعلى الفقير ألَّا ينظر إلى وضعه الوظيفي بل إلى وضعه ومستواه المادي فيشتري بما يتناسب معه، ولا يطمع أنْ يكون مثل زميله؛ لأن لكلٍّ منهما قدرة وإمكانية يجب ألَّا يخرج عنها.

هذه هي النظرة الاقتصادية الدقيقة، والتصرُّف الإيماني المتزن؛ لذلك فالذي يحترم قضاء اللَّه ويرضى بما قَسَمه اللَّه له ويعيش في نطاقه غيرَ متمرد عليه، يقول له الحق سبحانه: لقد رضيتَ بقدري فيك، فسوف أرفعك إلى قدري عندك، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق.

وهذا مُشَاهَد لنا في الحياة، والأمثلة عليه واضحة، فكَمْ من أُناسٍ كانوا في فقر وضيق عيش، فلما رضوا بما قسمه اللَّه ارتقتْ حياتهم وتبدَّل حالهم إلى سَعَة وترفٍ.

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع الإنسانُ نفسه دائماً في مقام الخلافة في الأرض، ولا ينسى هذه الحقيقة، فيظن أنه أصيلٌ فيها.

والخيبة كلّ الخيبة أنْ ينسى الإنسانُ أنه خليفةٌ للَّه في الأرض، ويظن أنه أصيلٌ في الكون، فأنت فقط خليفةٌ لمن استخلفك، ممدود مِمَّنْ أمدَّك، فإياك أن تغترَّ، وإياك أنْ تعيش في مستوى فوق المستوى الذي قدَّره اللَّه لك.

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكون كله لأن اللَّه تعالى جعل الدنيا أغياراً.

وجعلها دُوَلاً، فالذي وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً، والذي ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً.

وهذه سُنة من سُنَن اللَّه في خَلْقه لِيدُكَّ في الإنسان غرورَ الاستغناء عن اللَّه، فلو متَّع اللَّهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لَمَا استمتع الكون بلذة: يا رب ارزقني، ولو متَّعه بالصحة دائماً لَمَا استمتع الكونُ بلذة: يا رب اشْفِني. لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه، محتاجاً إليه، داعياً إياه.

وقد قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه، وتُوصله به سبحانه. فالبَسْط والتضييق من اللَّه تعالى له حكمة، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البسط، فيعطيهم كلَّ ما يريدون، ولا يقبض عنهم كلّ القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون، بل يعطي بحساب وبقدر، لتستقيم حركة الحياة.

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فلو لم يُوزِّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم، فمن بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه، ومَنْ ضُيِّق عليه يتمرد على الكون، ويحقد على الناس، ويحسدهم ويعاديهم.

أما إذا علم الجميع أن هذا بقَدر اللَّه وحكمته، فسوف يظل الكونُ المخلوق موصولاً بالمكوِّن الخالق سبحانه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ [الإسراء: ٣٠]، ملمحٌ لطيف، فربك يا محمد وأنت أكرم الخَلْق عليه، ومع ذلك بسط لك حتى صِرْت تعطى عطاءَ مَنْ لا يخشى الفقر، وقبض عنك حتى تربطَ الحجر على بطنك من الجوع.

فإنْ كانت هذه حاله ﷺ، فلا يستنكف أحدٌ مِنَّا إنْ ضيّق اللَّهُ عليه الرزقَ، ومَنْ مِنَّا ربط الحجر على بطنه من الجوع؟

لقد جاء القرآنُ لأمة وسط بالأمور الوسط في كل شؤون الحياة، ففي قمة المسائل وهي الأمور العقدية مثلاً يقف الإسلامُ موقف الوسطية بين مَنْ

ينكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة، فينفي هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له.

وفي الإنفاق يختار الوسط، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة، ويَرْقَى بحياة الفرد، وقد لخص هذا المنهج الاقتصادي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فالمُمسك المُقتِّر الذي يقبض يده عن الإنفاق يتسبب في ركود البضائع وتوقُّف حركة الحياة، وهذا خطر على المجتمع، وفي التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه، ولا يبقي على شيء يرتقي به في الحياة، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك، محسوراً على التبذير الذي فوَّتَ عليك فرصة الترقي مثل الآخرين.

ويُروى أن عبد الملك بن مروان لمَّا أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة: يا عمر، ما نفقتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، نفقتي حسنةٌ بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيراً يضمن له ولزوجته مقومات الحياة ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع، وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دخله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده، لأنه أسرف في الإنفاق، ولم يدخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً أو يشتري سيارة.. الخ.

وقد كان من وصايا عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه لولده عاصم: كُلْ نصف بطنك، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقته (أي: أصبح قديماً بالياً)، ولا تجعل كلَّ رزقك في بطنك وعلى جسدك.

حتى إذا أردتَ أن توصي وصية من مالك فكُنْ وسطاً متوازناً، فعن سعد ابن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة. قال: يرحم اللَّه ابنَ عفراء. قلتُ: يا رسولَ اللَّه أوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت:

فالشطر؟ قال: لا. قلت: الثلث؟ قال: «فالثلث والثلث كثير، إنك إنْ تدعْ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس».

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى، فربُّك عزَّ وجلَّ خلقك وخلق لك مقومات حياتك وحدَّ لك الحلال والحرام، فإذا حاولتَ أنت أن تزيد في جانب الحلال مما حرَّمه اللَّه عليك، فهذا إسرافٌ منك وتجاوز للحدِّ الذي حدَّه لك ربك، تجاوزت الحد فيما أحل لك وفيما حرم عليك.

وقد يأتي الإسراف من ناحية أخرى، فالشيء في ذاته قد يكون حلالاً لكن أنت تأخذه من غير حله، فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن اللَّه تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء، فلا تنقل شيئاً مما حرم إلى شيء أُحلَّ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم.

قال الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

إذن: فربُّك لا يُضيق عليك وينهاك أن تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحل لها، كما يلومك على أن تحلل ما حرم عليك لأن ذلك في صالحك.

وكما يكون الإسراف في الطعام والشراب وهما من مُقومات استبقاء الحياة، يكون كذلك في استبقاء النوع بالزواج والتناسل إلى أن تقوم الساعة، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال، فمَن تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف.

وحينما ذهب عثمان بن مظعون إلى رسول اللَّه ﷺ، وقد أراد أن يذهب ويتنسك ويسيح في الكون، وقال لرسول اللَّه: يا رسول اللَّه.. إنني أريد أن أختصي. أي: أن يقطع خصيتيه، كي لا تبقى له غريزة جنسية، فقال رسول اللَّه ﷺ له: «يا عثمان خصاء أمتي الصوم».

ولذلك قال ﷺ في شأن مَنْ لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء».

وقد رُوي أن رسول اللَّه ﷺ ذكَّر الناس وخوَّفهم، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أنْ يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء ويَجُبُّوا مذاكيرهم.

فكان التوجيه النبوي أن حَمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «ما بالُ أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوَّج النساء، فمَنْ رغب عن سنتي فليس مني».

إنه خيط واحد يربط كل ذلك، وهو أن يكون الإنسان ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

العبادة والطاعة والنية لإله واحد

عن الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

« إنَّ اللَّهَ عز وجل يقول: أنا خير شريك، فمَنْ أشرك معي شريكاً فهو لشريكي، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم للَّه عز وجل فإن اللَّه لا يقبل إلا ما أُخلص له، ولا تقولوا: هذا للَّه وللرحم، فإنها للرحم وليس للَّه منها شيء. ولا تقولوا: هذا للَّه ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس للَّه منها شيء»(١)

ثم يَصِف الحقُّ سبحانه عباده بصفة أخرى، قد يسأل سائل عنها ويقول: أبعد كل هذه الصفات لعباد اللَّه نطلب منهم أنْ لا يدْعوا مع اللَّه إلهاً آخر، وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم لا يشركون مع اللَّه أحداً، ولا يدعون أحداً إلا اللَّه.

إن الحق سبحانه جعل هذه القضية أساسَ الإسلام وكل دين، بل هي الركن الركين فيه، فلا يصحّ للإنسان عملٌ أو قول إلا إذا كان خالصاً للَّه وحده.

فإذا كان عباد اللَّه يمشون على الأرض هَوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ويبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، ويقولون: ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم، وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواماً.

كلُّ هذه الصفات يحتاج إلى إخلاص النية وصدق التوجه إلى اللَّه، وكما قال رسول اللَّه: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىء ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله فهجرتُه إلى اللَّه ورسوله ومَنْ كانت

(١) أخرجه الدارقطني في سننه من حديث الضحاك، وذكره في الاتحافات السنية وعزاه للخطيب في المتفق والمفترق، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٢١).

هجرته لدُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

فقد يفعل مجموعةٌ من البشر عملاً واحداً، ولكنَّ كُلّاً منهم له نية تختلف عن نية الآخر، ويعطينا الحديث الشريف مثالاً من أهم شيء حدث في تاريخ المسلمين، وهو هجرة المسلمين مع رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى المدينة.

فمنهم مَنْ هاجر قاصداً اللَّه ورسولَهُ، وابتغاءَ مرضاتهما، وهرباً بدينهم من إيذاء وفتنة المشركين لهم، ومنهم مَنْ كانت له نيةٌ أخرى، وهاجر لغرض آخر، وهو اللحاق بامرأة يحبها، ولكنها أسلمت وهاجرت، فهاجر وراءها، وقد اشتُهر في هذا قصة مهاجر أم قيس، حتى أن ابن مسعود قال: مَنْ هاجر يبتغي شيئاً فهو له[٢].

قال ابن مسعود: كان فينا رجلٌ خطب امرأة يُقال لها: أم قيس. فأبَتْ أنْ تتزوَّجه حتى يهاجر، فهاجر، فتزوجها، فكُنَّا نسميه مهاجر أم قيس.

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فَصَلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالجهاد والحج، وقد سُئِل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يُقصد به من الرياء وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك: أيُّ ذلك في سبيل اللَّه؟ فقال[٣]: «مَنْ قاتل لتكون كلمةُ اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه» فخرج بهذا كلُّ ما سألوا عنه من المقاصد الدنيوية.

وروى أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أولَ الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استشهدْتُ. قال: كذبْتَ، ولكنك قاتلتَ، لأنْ يُقالَ: جريء، فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحب على وجهه، حتى أُلقِي في النار».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر. قال الشافعي: هذا الحديث ثلث الإسلام، و يدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه. وقال ابن مهدي وغيره: ينبغي لمن صنَّف كتاباً أن يبدأ بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية.

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم ص ٢٢، وعزاه لوكيع في كتابه عن الأعمش بسنده.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه، فمَنْ في سبيل اللَّه ؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة اللَّه أعلى فهو في سبيل اللَّه».

«ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتِي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمْتُ العلم وعلَّمته وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبْتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال: عالم. وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقيَ في النار».

«ورجل وسَّع اللَّهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أنْ يُنْفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبْت، ولكنك فعلْتَ ليُقال: هو جَوَاد، فقد قيل ثم أُمِر به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلْقِي في النار»[(١)].

لذلك كان قَوْلُ الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالناس يعملون الخير لغايات رسمها اللَّه لهم في الجزاء، ومن هذه الغايات الجنةُ ونعيمها، لكن هذه الآية تُوضِّح لنا غايةً أسمى من الجنة ونعيمها، هي لقاء اللَّه تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، فقوله تعالى: ﴿يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، يصرف النظر عن النعمة إلى المُنعِم تبارك وتعالى.

فمَنْ أراد لقاء ربه، لا مجرد جزائه في الآخرة فليعمل عملاً صالحاً، ثم لا يشرك مع اللَّه أحداً، لا في عمله، ولا في نيته.

فبعض البشر توجد عندهم صفات الأريحية والإنسانية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصنع الخير، ويُقدم الصدقات، ويُقيم المؤسسات رعايةً للمحتاجين والعاجزين، سواء كانت صحية أو اقتصادية، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية، لا من زاوية منهج اللَّه، فيكون كلُّ ما فعله حابطاً، ولا يُعترف له بشيء؛ لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان باللَّه.

فلا تظن أن الذي يصنع الخير دون إيمان باللَّه له أجرٌ عند اللَّه، فاللَّه سبحانه يجازي مَنْ كان مؤمناً به، وكان اللَّه في بال العبد ساعة يصنع الخير فمَنْ صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٢) ومسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

جزاءه ممَّنْ عمل له، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقالَ عنه ذلك فقد قيل، إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن اللَّه يجازي في الآخرة مَنْ كان اللَّهُ في باله ساعةَ أن عمل.

فمَنْ عمل عملاً من أعمال الخير وليس في باله الذي يعطي الثواب وهو اللَّه، بل كان في باله الخلق حبط عمله، يقول الحق سبحانه عن الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

ومعنى ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: لا ثمرة مرجوة من العمل، إن كل عمل يعمله العاقل لا بد أن يكون لهدف يقصده، فأيُّ عمل لا يكون له مقصدٌ يكون كضربة المجنون، ليس لها هدف.

إن العاقل قبل أن يفعل أيَّ عمل ينبغي أن يعرفَ الغاية منه، وما الذي يُحققه من نفع؟ وهل هذا النفع الذي سوف يحققه هو خير النفع وأدومه؟ أو هو أقلّ من هذا؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقلُ عمله، وحينما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنساناً قد يعمل عملاً هو في ظاهره خير، فإياك أن تغترَّ أيها المؤمن بأنه عمل خيراً، لماذا؟ لأن عمل الخير لا يُحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمَنْ يجازي.

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عملٌ حسن، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً في الدنيا وفي الآخرة؟ إنه حابطٌ بموازين الإيمان، ويكون العملُ حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن؛ لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقةً بنتيجة العمل، لا ثقةً بالآمر الأعلى، أما الإنسان المؤمن فإنه حين يقوم بالعمل يقوم به ثقةً في الآمر الأعلى.

وبعضُ الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازي الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية، يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أن باستير الذي اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذي اكتشف الأشعة، وكلُّ هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار؟

لهؤلاء نقول: الحق بعدالته أراد ذلك، ولنحتكم نحن وأنتم إلى أعراف الناس، إن الذي يطلب أجراً على عمل يطلبه ممَّنْ؟ إنه يطلب الأجر ممَّنْ عمل له، فهل كان اللَّهُ في بال هؤلاء العلماء وهم يعملون هذه الأعمال؟

إن بالهم كان مشغولاً بالإنسانية، وقد أعطتْهم الإنسانية التخليد، وغير ذلك من مكاسب الدنيا. إذن: فإذا كان الجزاء من اللَّه، فَلَنَا أن نسأل: هل كان اللَّهُ في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم؟

لم يكُنْ في بالهم اللَّه، والذي يطلب أجراً فهو يطلبه مِمَّن عمل له، ولم يُضِع اللَّهُ ثمرةَ عملهم، بل درَّتْ عليهم أعمالهم الذِّكْرَ والجاه والرفعةَ، ولم يُضِع اللَّه أجرَ مَنْ أحسن عملاً.

يقول الحق سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لن يُضيّع أجر أعمالهم الحسنة، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا، لكن حَرْث الآخرة ليس لهم، فهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة، ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة، وقد يوجد مَنْ عمل عملاً حسناً نافعاً للناس، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاءً للَّه، بل للشهرة لينتشر ذكْره ويذيع صيته، ويُثني الناسُ عليه، أو للجاه والمركز والنفوذ.

ولذلك حين سُئِل رسول اللَّه ﷺ: مَن الشهيد؟ قال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه»[1]. لأن الرجل قد يقاتل حميةً، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع، فقتالُ الرجل دائماً بحَسْب نيته، فالقتال مرّة يكون في سبيل اللَّه، ومرّة يكون في سبيل النفس، ومرّة يكون في سبيل الشيطان.

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته، أو أي انتماء آخر، وكلُّ هذه الانتماءات في عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج اللَّه، لتكون كلمةُ اللَّه هي العليا. والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٣)، وكذا مسلم (١٩٠٤).

﴿أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣].

وقد يطرأ سؤالٌ على خاطر المؤمن؛ ألَا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألَا يأتي إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير.

فنقول: شَرْط تقبُّل اللَّه لأيِّ عمل إنما يأتي بعد الإيمان باللَّه، إما أنْ تعمل وليس في بالك اللَّه، فَخُذْ أجرك ممَّنْ كان في بالك وأنت تعمل؛ لذلك ضرب اللَّه مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فَمنْ فعل شيئاً وليس في باله اللَّه سيُفاجأ يوم القيامة بأن اللَّهَ تعالى الذي لم يكُنْ في باله موجودٌ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذي سيحاسبه، فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من اللَّه الحياةَ فيفنيها فيما لا ينفع، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

وقد صوَّر الحقُّ موقفهم التصويرَ الرائع في هذه الآية. إنه سرابٌ ناتج عن تخيُّل الماء في الصحراء، يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء، فيظلّ السائرُ متجهاً إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً، ويُفَاجأ بوجود اللَّه، فيندم ويتلقَّى العذاب.

كذلك لن يُقبل منه ملءُ الأرض ذَهَباً لو أنفقه في أيِّ خير في الدنيا، ولن يقبل اللَّهُ منه مِلءَ الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه في الآخرة، إنْ كان سيجد ملءَ الأرض ذهباً، وعلى فرض أنه قد وجده فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه؟

لا، إنه في الحقيقة لن يجد الذهب؛ لأنه في الآخرة لم يَعُدْ يملك شيئاً، فمَنْ فعل وليس في باله اللَّه، بل كان في باله المجد وتخليد الذكْر، فقد أعطتْهم الإنسانيةُ ما يريدون، فخلَّدتْ ذكراهم وأقامتْ لهم التماثيل، ومنحتهم الأوسمة، ووضعتْ فيهم المؤلفات لتمدحهم.

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس، فأنت إذا صنعتَ معروفاً تقصد به وجهَ اللَّه عز وجل جزاكَ اللَّهُ عنه خيراً، ولكن إنْ عملتَ معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك، أو تأخذ بها شهرة، فلا جزاءَ لك عند اللَّه.

ولا بُدَّ أنْ يصنع الإنسانُ المؤمنُ كلَّ عمل، وفي باله اللَّه خالقه والمتفضِّل عليه بالنعم، فإذا أطعمتَ فقيراً فَلْتُطْعمه لوجه اللَّه، وعليك ألَّا تفعل المروءةَ من أجل أنْ يُقال عنك: إنك صاحبُ مروءة.

وعلى سبيل المثال، تلك اللافتات التي تُوضَع على المساجد بأسماء مَنْ قاموا بتأسيسها، واللَّه عليمٌ بكل شيء، يعلم اسم مَنْ أقام البناء، وعليك إذا بنيتَ مسجداً أنْ تُسميَه بأيِّ اسم لا يمتُّ لك بصلة حتى لا تدخلَ في دائرة «عملتَ ليُقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذي يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أنْ يعقد النية للَّه، لا أنْ يقاتل من أجل أنْ يُقال: إنه شجاع، لأنه إنْ فعل حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شَابَهُ الرياء والسمعة.

ولا يهزّ المجتمعات ولا يُزلزلها ويهدّها إلا هذه المراءاة؛ فالحق يحب أنْ يؤدي المسلمُ كلَّ عمل جاعلاً اللَّه في باله وهو الذي لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المُرائي للناس، فيقول: إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه؟ قال: الرياء. يقول اللَّه تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء[1].

وقال ﷺ: «إن المُرائي يُنَادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر، يا غادر، يا مُرائي، ضَلَّ عملك، وحَبط أجرُك، فَخُذْ أجرك ممَّنْ كنتَ تعمل له».

فالمُرائي إنما يخدع نفسه، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس، ويُزكِّي ليراه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد أن رسول اللَّه (قال: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه؟ قال: الرياء. يقول اللَّه عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟

الناس، ويحجّ ليراه الناس، هو يعمل ما أمر اللَّه به لكنه لا يعمل للَّه.

والحق سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) [البقرة: ٢٦٤].

فالذي يتصدَّق ويُتْبع صدقته بالمَنِّ والأذى إنما يُبطِل صدقته، وخسارته تكون خسارتين:

الخسارة الأولى: أنه أنقص ماله بالفعل؛ لأن اللَّه لن يُعوِّض عليه؛ لأنه أتبع الصدقة بما يُبطلها من المَنِّ والأذى.

والخسارة الأخرى: هي الحرمان من الثواب، فالذي ينفق ليقول الناسُ عنه إنه ينفق، عليه أنْ يعرف أن الحقَّ يُوضِّح لنا: أنه يعطي الأجر على قاعدة أن الذي يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطي الأجر لمَنْ عمل له عملاً، والذي يعمل من أجل أنْ يقول الناس؛ أنه عمل فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر، فالذي يفعل الحسنة أو الصدقة ليُقال عنه: إنه فعل، فإنه يأتي يوم القيامة، ولا يجد أجراً له.

وإياك أنْ تقول: أنا أنفقتُ ولم يُوسِّع اللَّهُ رزقي؛ لأن اللَّه قد يبتليك ويمتحنك، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق، فعطاءُ اللَّه ليس في الدنيا فقط، ولكن اللَّهَ يريد ألَّا يُعطيك في الفانية، وأبقى لك العطاءَ في الباقية وهي الآخرة، وهو خَيْرٌ وأبقى.

والحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناس: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

إنه يريد بالإنفاق مراءاةَ الناس؛ ولذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر مَنْ يُثَمِّن عطاءك فأنت عندما تعطي شيئاً لإنسان فهو يُثَمِّن هذا الشيء بإمكاناته

---

(١) الوابل: المطر الشديد الضخم القَطْر. [لسان العرب مادة: وبل].

وقدراته، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك، لكن العطاء للَّه كيف يُثَمِّنه سبحانه؟ لا بُدَّ أنْ يكون الثمنُ غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطي النعمة ولنا الأُسْوة في سيدنا عثمان رضي اللَّه عنه عندما علم التجار أن هناك تجارةً آتية له، جاء كلُّ التجار ليشتروا منه البضاعة، ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءني مَنْ يعطيني أكثر من ثمنكم. وفي النهاية قال لهم: أنا بعتُها للَّه.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع اللَّه، فرفع من ثمن بضاعته فالذي يعطي رئاءَ الناس نقول له: أنت خائب؛ لأنك ما ثمَّنتَ نعمتك، بل ألقيتَها تافهةَ الثمن، ماذا سيفعل لك الناس؟ هم قد يحسدونك على نعمتك، ويتمنَّوْنَ أنْ يأخذوها منك، فلماذا تُرائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام سبحانه هو الذي اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير؛ لأنه يعطي النعيم الذي ليس فيه أغيار، ففي الجنة لا تفوت النعمةُ مؤمناً ولا هو يفوتها، فالذي يُرائي الناسَ خاسر، ولا يعرف أصول التجارة؛ لأنه لم يعرف طَعْم التجارة مع اللَّه.

ولذلك شبّه عمله في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والصفوان هو المروة، وجمعه مَرْو. وهي حجارة بيض براقة، والمروة ناعمة وليست خشنة، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب، ولأن المروةَ ناعمةٌ جداً فقليلٌ من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب.

والذي ينفق ماله رئاءَ الناس هو مَنْ تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمانُ في قلبه بَعد، فلو كنتَ تعلم أنك تريد أنْ تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أعلى، فلماذا تعطيها للأقلِّ ثمناً؟

إنْ فعلتَ فقد خبْتَ وخسرتَ فأوضح لك الحق: ما دُمْتَ تريد رئاء الناس فأنت لست مؤمناً بمن يشتري بأعلى، فتكون في عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قُلْنا: ليحذر كلُّ واحد حين يعطي أنْ يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله اللَّه بحُسْن الأجر، ولكن عليه ألَّا يعطي بضجيج ودعاية تفضح عطاءه؛ ولذلك ذكر النبي ﷺ ضمن السبعة الذين يُظلهم اللَّه في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظلّه: «رجل تصدَّق بصدقة، فأخفاها، حتى لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينه»، [أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة].

إن العبد الصالح حين يعطي فهو يعلم أن يده هي العليا، ويده خير من اليد السُّفلى، فليستر على الناس المحتاجين سُفْلية أيديهم ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه لا يريد أنْ يُضيِّق مجال الإعطاء، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فإبداء الصدقات لا مانعَ منه، إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون أُسْوة، المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة، فالحق يوضح: إياك أن تنفقَ وفيك رئاء، أما مَنْ يُخرج الصدقة، وفي قلبه رياء، فاللَّه لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ؛ لأنه سبحانه يؤكد: خُذوا منه وهو الخاسر، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمعَ ينتفع.

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم الذين لا يؤمنون باللَّه، لأنه سبحانه هو المعطي، وهو يحب أنْ يضع المسلمُ عطاءه في يده؛ ولا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لاستحضروا الجزاء الباقي، فأنت إذا كنتَ تحب نعمتك، فَخُذْ النعمة، وحاول أنْ تجعلها مثمرة، أي: كثيرة الثمار.

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضات اللَّه، فيُقَرِّب اللَّه لهم مثلاً، فيقول الحق سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إن ابتغاءَ مرضاة اللَّه في الإنفاق تعني خروجَ الرياء من دائرة الإنفاق، فيكون خالصاً لوجهه سبحانه، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً، فكأن النفسَ الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس

الإيمانية أيَّ شيء، فإن النفس الشهوانية تحاول أنْ تمنعها، وتتغلَّب النفسُ الإيمانية على النفس الشهوانية، وتنتصر للَّه.

والمراد بـ ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هو أنْ يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق، لا حُباً أحمق.

إذن: فعملية الإنفاق يجب أنْ تكون أولاً إنفاقاً في سبيل اللَّه، وتكون بتثبيت النفس بأنْ وهب المؤمن أولاً دمه، وثبَّت نفسه ثانياً بأنْ وهبه المال، وهكذا يتأكد التثبيت، فيكون كما تُصوّره الآية الكريمة: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يُوجد به زرع كثيف أخضر، لدرجة أنه يستر مَنْ يدخله، ومنها «جَنَّ» أي: ستر. ومَنْ يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق سبحانه يريد أنْ يضرب لنا المثل الذي يُوضح الصنف الثاني من المنفقين في سبيل اللَّه ابتغاءَ مرضاته، وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحدُ منهم كمَنْ دخل جنةً كثيفةَ الزرع، وهذه الجنة توجد بربوة عالية.

وعندما تكون الجنةُ بربوة عالية، فمعنى ذلك أنها مُحاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها، فماذا يفعل المطرُ بهذه الجنة التي توجد على ربوة؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق ماله ابتغاءَ مرضاة اللَّه وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تُروى بأسلوب رباني، فإنْ نزل عليها وابلٌ من المطر أخذتْ منه حاجتها، وانصرف باقي المطر عنها. ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾.. [البقرة: ٢٦٥]، والطَّل هو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتي ضِعْفَيْن من نتاجها، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوي الشيء مرتين فالضِّعْفان يساويان الشيء أربع مرات.

والحق سبحانه يقول عن القتال في سبيل اللَّه: ﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج اللَّه سبحانه، وحينما يقول تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل اللَّه، كأنْ يقاتل الرجلُ حميةً، أو ليُعلَمَ مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته.

ولذلك تساءل بعض الناس: مَن الشهيد؟ فقيل: هو مَنْ قاتل لتكونَ كلمة اللَّه هي العليا فيكون شهيداً. إذن: فالقتال مرّة يكون في سبيل اللَّه، ومرّة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أنْ يكون في سبيل اللَّه؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع حَدّاً لجبروت البشر، فلا بُدَّ أن تكون نيةُ القتال في سبيل اللَّه، لا أنْ يكون القتالُ بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، وإنما القتال لإعلاء كلمة اللَّه، ونُصْرة دين اللَّه، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والحق ينهى عن الاعتداء. أي: لا يقاتل مسلم مَنْ لم يقاتله ولا يعتدي، ففي قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداءٌ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين.

ويقول الحق سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام اللَّه قد اشترى من المؤمن نفسَه فيجب على المؤمن ألَّا تُهمه نفسه فيدخل المعركةَ بالصفقة الإيمانية، فإذا أهمَّتْهُ نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهُّم الأشياء.

وما دام سبحانه هو الذي اشتراه فلا بُدَّ أن الثمنَ كبيرٌ، فالمؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذَ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة، فكلٌّ منا في حياته يحب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأن يعطي شيئاً، ويأخذ شيئاً أكبر منه.

لذلك يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، فالحق سبحانه يُنمِّي فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنَّ أحدٌ أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذلَّه، فالدِّين إنما جاء ليُرتِّبَ للمؤمن النفعية ويُنميها له.

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة، عملية بيع وشراء، وإذا كان هذا مِلْكاً للَّه، فاللَّه هو المشتري، واللَّه هو البائع. وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق سبحانه ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولا يَبْلَى، ونعيمك فيها على قدر إمكانات اللَّه التي لا نهايةَ لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكاناتك أنت في أسباب اللَّه، وهكذا يكون الثمنُ غالياً.

والثمن هو الجنة، وهو وَعْد بشيء يأتي من بعد، ولكنه وَعدٌ ممَّن يملك إنفاذه، فالوعد الحق هو مِمَّن يملك ويقدر، وحيّ لا يموت.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١].

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً، وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد مَنْ هو أَوْفى منه، فالعهد الحقيقي إنما يُؤخذ من اللَّه، فلا أحدَ أوْفى من اللَّه بالعهد، وما دام الوعد بالجنة فالجنةُ لا يملكها إلا هو سبحانه، ووَعْده حق.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع، وأن الأموال سوف تُنفق، وهذا يُقبض النفس، فهذا فيه الموت وخسارة للمال، وكان من الطبيعي أنْ يشحب وجهُ الإنسان ويفزع ويخاف.

ساعةَ يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبِشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، لكن

المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تُصيبنا بالخوف، بل علينا أنْ نستقبلها بالاستبشار، فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً. ولذلك فقضية الإيمان باللَّه واليوم الآخر هو مطلوبُ الحق سبحانه من أنْ يكون العملُ خالصاً للَّه ابتغاءَ مرضاته، لا ابتغاءَ السمعة والصيت بين الناس، لا رياء ونفاقاً.

فالرياء مُحبط للعمل ومَاحِقٌ للثواب ودليلٌ على ضَعْف إيمان صاحبه، وحين يرجع لربه لن يجد له شيئاً من ثواب الآخرة، لأنه أخذ ما أراده في الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس فليس له في الآخرة من نصيب.

فعباد اللَّه يبتغون بأعمالهم وجه اللَّه، فنياتهم خالصةٌ للَّه، لا يبتغون من خَلْقه ذكراً ولا صِيتاً ولا مجداً، فتواضعهم ومَشْيهم على الأرض هَوْناً، ومخاطبتهم الجاهلين بالحسنى، وبياتهم لربهم سُجَّداً وقياماً، ودعاؤهم للَّه أن يصرف عنهم عذاب جهنم، وإنفاقهم، كل هذا لا يرجون رضا أحد إلا اللَّه، فلا يدعون مع اللَّه إلهاً آخر، بل إله واحد.

كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

وقد جاء النهي في الآية نتيجة خروج الإنسان عن مراد ربه سبحانه، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً ـ يعني الثقلين ـ هم المختارون في الكون كله، اختيار في أشياء، وقَهْر في أشياء أخرى، ومع ذلك لم يشذ من خَلْق اللَّه غيرهما.

فالسماوات والأرض كان لها اختيار، وقد اختارتْ التسخير، وانتهت المسألة في بداية الأمر، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتؤدي مهمتها لخدمة الإنسان، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض، فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر، وكذلك الهواء والأرض والدابة، وكل ما في كَوْن اللَّه مُسخَّر للجميع.

فكل هذه الأشياء لها مهمة وتؤدي مهمتها على أكمل وجه؛ يقول تعالى

في حَقِّ هذه الأشياء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

هكذا بالإجماع، لا يتخلَّف منها شيءٌ عن مراد ربه، فما الحال في الإنسان؟ يقول تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: والناس ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

هذا هو الحال في الإنسان المُكرّم الذي اختاره اللَّه وترك له الاختيار، أما كل الأجناس فهي مؤدية واجبها لأنها أخذت حظها من الاختيار الأول فاختارتْ أنْ تكونَ مُسخّرة، وأن تكون مقهورة.

فالإنسان.. أحدهم يقول: لا إله في الوجود، العالم خُلق هكذا بطبيعته. وآخر يقول: بل هناك آلهة متعددة فالعالم به مصالحُ كثيرة وأشياء لا ينهض بها إلهٌ واحد. يعني: إلهٌ للسماء، وإله للأرض، وإله للشمس.. الخ.

فيا مَنْ تشفق على الإله الواحد أن يتعب من إدارته للكون بشتى نواحيه، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر، لأن اللَّه تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون، وإنما يباشره بكلمة «كُنْ».

إذن: إلهٌ واحد يكفي، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد، فإياك أنْ تقول بتعدُّد الآلهة، وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفي إلهين اثنين، فنَفْي ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى، واثنان أقلّ صُور التعدُّد.

ومعنى ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ أي: معبودين، فيكون لهما أوامر ونَوَاهٍ، والأوامر والنواهي تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنه يحتاج إلى مساعد؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد، فهذا نقصٌ فيه، ولا يصلح أنْ يكون إلهاً.

وكذلك إنْ تخصَّص كلٌّ منهما في عمل ما، هذا لكذا، وهذا لكذا، فقد أصبح أحدهما عاجزاً عما يقوم به الآخر، وأيُّ ناحية إذن من نواحي الحياة تكون هي المسيطرة؟ ومعلوم أن نواحي الحياة مشتركة ومتشابكة.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً، وأراد الآخر ألَّا يكون هذا الشيء؟ فإنْ كان الشيءُ كان عَجْزاً في الثاني، وإنْ لم يكُنْ كان عجزاً في الأول. إذن: فقوة أحدهما عجزٌ في الآخر.

ونلحظ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]، عِظَة بليغة، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا: أريحوا أنفسكم بالتوحيد، وقد أوضح الحق هذه الراحة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

يعني: رجل خُلَّص لسيد واحد، ورجل أسياده كثيرون، وهم شركاء مختلفون، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخرز فهو دائماً مُتعب مُثقل، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة.

ففي أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا، وكأنه سبحانه يقول: لكم وجهة واحدة تكفيكم كل الجهات، وتضمن لكم أن الرضا واحد وأن البُغْض واحد.

إذن: فطلبه سبحانه راحةٌ لنا؛ لذلك قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته تعالى، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

فلو قال معترض: كيف يشهد لذاته؟ نقول: نعم، يشهد لذاته سبحانه، لأنه لا أحدَ غيره، لا أحدَ معه، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي وكأنه سبحانه يقول: لا أحدَ غيري، وإنْ كان هناك إلهٌ غيري فَلْيُرني نفسه، وليفصح عن وجوده.

أنا اللَّه خلقتُ الكون وأخذتُه وفعلتُ كذا وكذا، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة، وإما أنْ أكون غير صادق، وهناك إله آخر هو الذي خلق، فأين هو؟ لماذا لا يعارضني؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع اللَّهَ في خَلْقه أحدٌ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلم لصاحبها، فإنْ قال قائل: لعل الآلهة الأخرى لم تدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلحون

للألوهية لعدم درايتهم، وإنْ دروا ولم يعارضوا فهم جبناء لا يستحقون هذه المكانة.

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق، لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره، فإذا قال «كُنْ» فهو واثق أنه سيكون؛ ولذلك ساعة يحكم اللَّه حكماً غيبياً يقول: أنا حكمتُ هذا الحكم مع أنكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون، وما دُمْت حكمتُ بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا، ولكن ما فعلتم، فهذا دليل على أنه لا إلهَ غيري يعينكم على أنْ تفعلوا.

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات، وشهد أولوا العلم شهادةَ الاستدلال كما قال سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

والحق سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض، فليس لأحد غيره ملكية مستقلة، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة. إذن: فليس له ذاتية وجود؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له، وما به قيام وجوده موهوبٌ له، لذلك يقولون: مَنْ أراد أن يعاند في الألوهية يجب أنْ تكون له ذاتيةُ وجود، وليست هذه إلا للَّه تعالى.

لذلك نقول لمن يعاند في الألوهية: أنت لا تقدر، لأن وجودك هبة، وقيام وجودك هبة، كل شيء يمكن أن يُنزع منك، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

فهذا الذي رأى نفسه استغنى عن غيره من وجهة نظره إنما هل استغنى حقاً؟ لا، لم يَسْتَغْنِ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٥٢]، الذي له ما في السماوات والأرض، وبه قيامُ وجوده بقيومته، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك: أنا قيُّوم يعني: قائم على أمرك، ليس قائماً فقط، بل قَيوم بالمبالغة في الفعل، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عدم، وإمداداً من عُدْم. إذن: يجب أنْ تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره.

والحق سبحانه له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً، ومُلْك اللَّه دائم، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكه لأحد، ولا تزال يد اللَّه في مُلْكه، وما دام الأمر هكذا، فالحق سبحانه يسألهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ، فلا يجوز أنْ تتقي غير اللَّه، لأنه حُمْق لا يليق بك، وقد علمتَ أن للَّه ما في السماوات وما في الأرض، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض، ومنه سبحانه الإيجاد من عدم والإمداد من عُدْم.

إذن: فمن الحُمْق أن تتقي غيره، وهو أَوْلَى بالتقوى، فإن اتقيتُم غيره فذلك حُمْق في التصرف يؤدي إلى العَطَب والهلاك، إن اغتررتُم بأن اللَّه تعالى أعطاكم نِعماً لا تُعَدُّ ولا تُحصى.